« هنا الشرق منبعث الفلسفات ، ومنطلق القيم الزاهرة »، تلك القيم التي « لها جاذبية تمر العراق، يذوب على الشفة العاصرة » .

ومن جملة الفلسفات التي تصدى لها الشعراء فلسفة الشعر ، وكيف ان المحدثين « مسخوا المنظوم بل نثروا». قال احمد رامي على تلفزيون بغداد انه لا يعترف بالشعر الحر ، لانه لا يعترف بفن دون قيد. واغلب ظني ان رامي يفرق بين الشعر الحر والشعر الجديد،وهذا الاخير يعترف بطبيعة الحال بقيود الوزن والقافية، ولكن باسلوب يختلف عن اسلوب الخليل . ولكن الذي استطيع تأكيده ان موظف التلفزيون لا يفرق ، ومن خلفه عدد هائل من المتأدبين والمتشاعرين الذين عدوا رأي رامي انتصارا للقيم الثقافية الموروثة .

وكانت تدور في ممرات قاعة الشعب اشاعة مؤداها ان داعية من اكبر دعاة التجديد والانطلاق في الشعر العربي عاد اليوم الى القول بان من ينظم الشعر الحر هو شعوبي . و « الشعوبية » هي آخر التهم السياسية هذه الايام .

صَيف في مُوسكو وفي بلغراد شتاء

بلغراد ، من أناتول شب :

أكان بمحض الصدفة ، ام من السخرية المناسبة ، انه في الوقت عينه الذي اقصي فيه ليونيد ايليتشيف عن منصبه في موسكو ، اعلنت بلغراد اتهامها لميخالو ميخالوف ؟

اما ايليتشيف فهو بالطبع السوط الرهيب الذي كان مسلطا على شعراء روسيا الشباب وفنانيها الحديثين ومفكريها المعادين للستالينية في السنوات الاخيرة لحكم خروتشيف . واما ميخالوف فهو الباحثة اليوغسلافي الشاب الذي نشر مقالين بعنوان « صيف في موسكو ، ١٩٦٤ » في مجلة « ديلو » في بلغراد في كانون الثاني (يناير) وشباط (فبراير) الماضيين ، واعلن فيهما ثقته بقيام « ١٩٥٦ جديدة » في الحياة والادب في روسيا . وقد حكم عليه بالسجن لمدة تسعة اشهر « لانه اساء الى دولة اجنبية » ، اي روسيا ، ولانه ارسل مخطوطته للخارج بعد ان فرض الحظر على مجلة « ديلو » .

ايمكن القول ان تيتو بعمله هذا انما يقدم هذا المفكر اليوغسلافي كبش ضحية لموسكو — في الوقت ذاته الذي تبدو فيه موسكو على عتبة فترة جديدة من الحرية والتسامح في ميدان الفكر ؟

ان المشاكل القائمة الآن بين تيتو والمثقفين اليوغسلاف يمكن القول انها بدأت منذ زيارته للاتحاد السوفييتي في آخر ١٩٦٢ . فقد جرت هذه الزيارة في ذات الوقت الذي حدثت فيه حملة خروتشيف وايليتشيف ضد المثقفين الروس. وسرعان ما كرر تيتو صدى هذه الحملة. فاعلن في الرسالة التي وجهها في رأس سنة ١٩٦٣: « ان الوضع في حياتنا الثقافية والاخلاقية السياسية ليس كما نحبه ان يكون ... خصوصا في الادب وفي الفن بشكل عام ، ففيهما الكثير مما هو غريب عن اخلاقيتنا الاشتراكية ومما لا ينسجم معها ؛ فيهما الكثير مما يحاول ان يحيد بمجرى تطورنا عن الخط الذي حددته ثورتنا وان يتجه به في اتجاه آخر . وفيهما ظواهر انحطاطية متنوعة مجلوبة من الخارج . ان من واجبنا ان نحارب هذه الاشياء ، ليس من وجهة ادارية على الدوام ولكن بعمل سياسي » . وعاد تيتو الى الموضوع ذاته في خطاب القاه في ٣١ كانون الثاني (يناير) في مؤتمر الشبيبة .

واستقبل في ٦ شباط (فبراير) اللجنة التنفيذية لاتحاد الصحفيين في يوغسلافيا والقى فيهم محاضرة اخرى : « لقد رفع بعض الناس صوتهم عاليا ضدي لما قلته عن الثقافة ... فهم يقولون : ان تيتو يعرف كيف يدير الشؤون السياسية حق المعرفة، لكن ليس كفؤا لمعالجة الشؤون الثقافية . ان اولئك الذين يقولون مثل هذه الاشياء لا يدركون ، ايها الرفاق ، ما هو الحزب الشيوعي ، او ما هي الاشتراكية ، او ما هي

الشيوعية . فانا لست مسؤولا عن التصنيع والزراعة فحسب ، بل انا مسؤول ايضا عن الثقافة ذاتها ... فبوصفي السكرتير العام للحزب ، انا مسؤول امام التاريخ وامام الشعب عن توجيه التطور في بلادنا والسير به في مجرى صحيح . لهذا يتوجب على مثل هؤلاء الناس ان يدركوا وان يتذكروا انه لا مفر من ذلك . واضيف الى هذا اني ، كرجل عادي يتفرج على الفن ، استطيع ان اعرف ما هو الجيد وما هو السيء . ولا يسعني ان ادعي ان شيئا ما جيد اذا لم يكن كذلك » .

وقد استطاع بعض المستشارين المعتدلين (وبقاء عدد من الغاليريات الرئيسية خالية خاوية) اقناع تيتو ان يترك الفنانين التجريديين وشأنهم . غير ان النشر والنشاطات الثقافية « اعيد تنظيمها » ، ومنعت احدى المسرحيات ، واقفلت احدى المجلات الثقافية ، ومنع احد الافلام واحدى الروايات .

ولد ميخالو ميخالوف سنة ١٩٣٤ في بلدة على الضفة اليسرى من الدانوب غير بعيد عن بلغراد . وكان ابواه ، شأنهما في ذلك شأن عشرات الالوف من الروس ، قد هاجرا الى يوغسلافيا اثناء المجاعة التي حصلت غب الحرب الاهلية . وكان ابوه (الذي اصبح من رجال المقاومة النشيطين فيما بعد وكان لعدة سنين مديرا لمعهد العلوم اليوغسلافي) في السابعة عشر من عمره اذ ذاك ، وامه في السابعة .

درس ميخالوف في جامعتي بلغراد وزغرب ، والتحق بالجيش ، ثم اصبح استاذا في قسم اللغات والآداب السلافية في دائرة الفلسفة في فرع جامعة زغرب القائم في زادار. وهو معني بادب دستويفسكي، لكنه ايضا يبدي اهتماما متزايدا بالادب السوفييتي المعاصر، وخاصة بعد ان بدأ يزيح عن كاهله قيود الستالينية. وقد حاضر مرارا عديدة في الاذاعة والجامعات ، وكتب مقالات كثيرة في عدد من الصحف والمجلات الرئيسية في البلاد .

وقبل ان يسافر الى روسيا في الصيف الماضي (بموجب اتفاقية للتبادل الثقافي ما بين روسيا ويوغسلافيا) كتب مقالا في ثلاثة اجزاء للنشر في مجلة « كولو » بموضوع « دستويفسكي اليوم ». وعندما عاد الى بلاده وجد ان الجزء الثالث لم يسمح بنشره، وان محرر المجلة قد فصل عن وظيفته لانه سمح بنشر الجزئين الاولين.

كتب ميخالوف « صيف في موسكو » في تشرين الاول (اكتوبر) الماضي ، ولكن اكثر من عشرة من رؤساء تحرير المجلات في يوغسلافيا رفضوها ، قبل ان وافق مركوفيتش على نشرها في مجلة « ديلو » . وقد اصاب هذا المقال شهرة في العالم كله لانه بحث في موضوع مثير (بالنسبة ليوغسلافيا) ، هو موضوع معسكرات الاعتقال في روسيا . غير انه بالدرجة الاولى مقال ادبي ، ذو اهمية ثقافية كبيرة .

صرف ميخالوف شهرا في موسكو ولينينغراد ، قابل خلاله عددا من الادباء واجرى محادثات معهم. وكان من بينهم الروائيون فلاديمير دودينتسيف ، وليونيد ليونوف ، و يوري بونداريف ، و فلاديمير تندرياكوف ؛ والشعراء بولات اوكود جافا ، و بيلا اخمادولينا ، و تمارا زرمونسكايا ؛ و ايليا اهرنبورغ ؛ والمؤرخان الادبيان الهرمان نيقولاي غوندزي و بوريس ميخائيلوفسكي والناقد الشاب فلاديمير توربين ؛ والمحرر المساعد لمجلة « نوفي مير » ؛ وكثيرون سواهم من الادباء والاساتذة وتلامذة الجامعات .

وقد نقل ميخالوف في مقاله الاحاديث والمناقشات التي دارت بينه وبينهم ، واعطى صورة مكثفة عن التطورات في الثقافة السوفييتية . وهو لا يكتفي بالتعرض للآثار الادبية ، المنشورة منها حديثا والتي ما زالت قيد الوضع ، لهؤلاء الكتاب، بل يتحدث ايضا عن كثير من الروايات والمسرحيات والدراسات النقدية، وينشر عددا من القصائد ومن اناشيد معسكرات الاعتقال ، ويسرد سير بعض الكتاب وما لقوه من منع ومن مضايقات .

ومقاله محشو ايضا بملاحظات صريحة ، عن اصطفاف الناس امام ضريح لينين (الذي يفتح ثلاث ساعات فقط كل يوم ، وليس يوميا) ، وعن رتابة الصحف السوفييتية ومسرح موسكو الفني ، وعن شولوخوف (« مجرد نصب تذكاري الآن ») ، وعن الفتيات الشابات في الكنائس الاربعين المفتوحة في موسكو، وعن عبادة لينين (« غريب ان الناس لا يلاحظون ان الاشياء التي تكرر بكثرة تفقد معناها ») .

لكن هذه الاشياء كلها لم تكن ، بحد ذاتها ، لتسبب رد الفعل السياسي الذي سببته . والواقع ان الجزء

الاول من مقال ميخالوف مر بدون اية حادثة – وكان يحوي معظم الملاحظات الجريئة التي ذكرناها، بالاضافة الى تنبؤه الشهير بان « ١٩٥٦ جديدة على الابواب » وبان « اليوم لم يعد بعيدا عندما سيندمج اتحاد الكتاب السوفييت باتحاد الكتاب الروس في باريس » .

قد لا تعرف قط اية اقسام في الجزء الثاني من المقال هي التي حدت بتيتو واعوانه للتصرف كما تصرفوا . وليس لنا ان نزعم تلقائيا بان القسم الذي اثارهم هو وصف المؤلف لمعسكرات الاعتقال الستالينية، فان كتابات كثيرة حول هذا الموضوع كانت في الواقع قد ظهرت في يوغسلافيا مابين ١٩٤٨ و١٩٥٣ . وليس السبب فزع بلغراد من العطف الذي يبديه المؤلف نحو الكتاب السوفييت المنشقين ؛ فرواية « الدكتور زيفاغو » قد نشرت فيها .

الا ان اغاني السجناء في المعتقلات (ويسميها ميخالوف « اخطر واهم فن شعبي في زماننا ») واغاني اوكودجافا الروائية ربما كانت امرا آخر مختلفا . ذلك ان ميخالوف حين يتعرض لها لا يخفي يقينه من انها تمثل روسيا الخالدة ، « البلاد التي نعرفها من مؤلفات تولستوي و دوستويفسكي » . وهو يقول ان اغاني السجون « ستظل تغنى بدون ادنى شك حتى بعد قرن من اليوم ، بالشكل الذي ما زالت اغاني السجون الروسية من القرن الماضي تغنى به اليوم ... ان اغاني الشعب الروسي ستسمع ، سواء اكتب عنها في روسيا ام احيطت بالصمت والكتمان » .

ظهر الجزء الثاني من مقال ميخالوف في « ديلو » في الاسبوع الاول من شباط (فبراير) وكتب عنه مراسلو الصحف في الغرب في نهاية الاسبوع. وفي الحادي عشر منه استقبل تيتو وفدا من مدعي الدولة وقال لهم : « ارأيتم ما حدث لذلك المقال في « ديلو » ؟ كان ينبغي على المدعي العام ان يمنعه رأسا وفي الحال وان يعلن قراره هذا على الملأ ... وكان ينبغي عليكم ان تشرعوا في الحال باتخاذ اجراءات ضد الشخص الذي كتب ذلك المقال، وان تنشروا قراركم في الصحف. فقد كان من الضروري ان يكون معلوما ان اتهاما قد وجه اليه ، وانه رجعي قد افترى على حدث عظيم هو ثورة تشرين الاول (اكتوبر) ... وانه لمن الغريب حقا ان تحدث لنا هذه الاشياء في حين ان عندنا اجهزة ادارة في كل من اتحادات مجالس الصحف ومكاتب المطابع».

وفي اليوم ذاته اصدرت احدى المحاكم في بلغراد الاعلان القضائي اللازم ، ومنعت « ديلو » ، وصودرت اكثر من الف نسخة منها . واضيفت (في اللحظة الاخيرة) للانتقاد المعتدل الذي كان سيوجه الى ميخالوف في صحيفة الحزب « كوميونيست » ، افتتاحية قوية فحواها انه « ليس بامكان المرء ان يتسامح مع آراء عنفية معادية في جوهرها للاشتراكية ، يدلى بها تحت ستار الصراع بين الآراء وحرية البحث والمناقشة » . وفصل مركوفيتش عن وظيفته في « ديلو » ووجهت اليه خليته في الحزب توبيخا.

ولكن لم يحدث شيء بعد هذا ، ولاكثر من اسبوعين . فظل ميخالوف يحاضر في زادار ، بل انه استحصل على جواز سفر . وانتشرت الشائعات التي تنتشر في العادة عن « صراع رئيسي » في اوساط الحزب العليا . ولكن في السابع والعشرين من شباط (فبراير) استقبل تيتو السفير السوفييتي . ويقول بعض الدبلوماسيين الشيوعيين ان السفير قدم الى تيتو مذكرة من موسكو ، يصفونها بانها « اطلاق مدفعية بحق وحقيق » .

وفي اليوم التالي نشرت صحيفة « نين » الاسبوعية هجوما طويلا غير موقع على ميخالوف . وحاول ميخالوف ان يرد على الهجوم – ومما قاله في رده : « ان هدف افتتاحيتك ان تخيف – لا ان تخيفني انا وحدي ، فهذا ليس قصدها الرئيسي ، بل ان تخيف كل من عنده اي ضرب من ضروب الفكر «الاصيل»... ان جريدتك لن تخيفني باتهامها لي بانني « معاد للشيوعية » . صدقني اني لست الشخص الوحيد الذي يشعر بانها كانت هي اليد ذاتها وعينها التي قتلت غارثيا لوركا و مكسيم غوركي و ديتري توشفيتش وتوخاشفسكي و باتريس لومومبا و ايري ناج . واني مقتنع كل الاقتناع بان كل زيادة في قوة الستالينية تعني ، وفي الوقت ذاته تساعد على ، نمو النازية الجديدة ؛ واذا قيض لوجهة نظرك ان تتغلب وتسود في يوغسلافيا فان هذا ،

رغم ما يبدو في الامر من مفارقة ، سيؤول الى تقوية المكارثية حتى هناك في الولايات المتحدة » .

لم يجرؤ واحد من المائتين والتسعين محررا الذين ارسل لهم ميخالوف نسخة عن الرسالة ان ينشرها. وعوضا عن ذلك نشرت الصحف في الرابع من آذار (مارس) ، ولاول مرة ، خطاب تيتو لمدعي الدولة . وفي اليوم ذاته اعتقل ميخالوف في زادار، وظل في السجن ٣٧ يوما ، اي حتى العاشر من نيسان (ابريل) .

حاولت السلطات اول الامر ان تكون دعواها عليه بتهمة « الدعاية المعادية »، وهي التهمة التي ادين بها دجيلاس مرتين . لكن سرعان ما تبين انه ليس ثمة دليل من بعيد او قريب يثبت عداءه ليوغسلافيا ، وهو ما يشترطه القانون . لهذا اتهم ميخالوف ومركوفيتش بموجب المادة ١٧٥ من القانون الجنائي بتهمة « الاساءة الى سمعة دولة اجنبية » . واتهم ميخالوف بموجب المادة ١٢٥ من قانون الصحافة لانه ارسل نسخة عن المخطوطة الى ناشر ايطالي بعد ان كان الحظر قد فرض على « ديلو » .

اما مركوفيتش فلم يعتقل قط. واسقطت فيما بعد التهمة ضده ، وقد اعيد الآن الى عمله في « ديلو ».

جرت المحاكمة في زادار في ٢٩ و ٣٠ نيسان (ابريل) .وفي عشية يوم المحاكمة اصدرت دائرة الفلسفة التي يعمل فيها ميخالوف امرا بفصله من الجامعة .

وسرعان ما تبين في المحكمة ان جوهر الدفاع عن ميخالوف هو : الحقيقة . قال: « ان الحقائق التاريخية لا يمكن ان تشكل اساءة » . وقال انه كان « عارفا انه بعرضه هذه الحقائق لن يكون الحزب المعني راضيا عنها » ، ولكنه مع هذا لم يكن في نيته ابدا ان يحقر او ان يقلل من قيمة الاتحاد السوفييتي . وقال ان تسعين بالمائة من المقال كان عن الادب ، لكن المرء لا يستطيع ان يكتب عن الادب السوفييتي بدون ان يجيء على ذكر المعسكرات – التي سيطرت على الادب في السنوات الاخيرة .

وسأله القاضي : لماذا شعرت انه من الضروري ان تقارن المعسكرات السوفييتية بالمعسكرات النازية ؟ اجاب : « لم يكن هذا بمحض الصدفة. فانا لا اعتبر ان الستالينية افضل من الفاشية ، ولذلك عملت المقارنة». واعاد القاضي السؤال بشكل آخر ، وكان جواب ميخالوف عليه اقوى: « ان الشمولية هي هي على الدوام، مهما كان الشعار الذي تظهر تحته ومهما كان النظام الاجتماعي الذي تعمل على تحقيقه » .

واستهل ميخالوف كلمته الاخيرة في المحكمة بقوله : « ان هذه محاكمة غريبة » ، واستعرض اعتقاله والتحقيقات معه التي سبقت المحاكمة والتهم المختلفة التي وجهت اليه – من « الصوفية » حتى تحقير ذكرى لينين. لكن كل شيء كتبه، قال، كان حقا، «وسأظل اكتب بهذا الشكل». وصرح بانه ليس في وجهات نظره اي شيء يمكن ان يفسر على انه معاد للاشتراكية . واضاف : « اذا ادانتني هذه المحكمة فانها تكون ايضا قد ادانت علم التاريخ ... لان المؤرخ سيقال له عندئذ ما الذي يسمح وما الذي لا يسمح بنشره كوثائق تاريخية » .

وفي الصباح التالي اصدرت المحكمة حكمها بان ميخالوف مذنب في كلتا التهمتين . وقال القاضي ان جميع الادلة « تشير الى ان هدفه كان التقليل من قيمة جهود الحكومة السوفييتية الحاضرة في جهادها ضد الستالينية » . وهذا غير مسموح به في يوغسلافيا التي تمارس سياسة من التعايش السلمي الفعال والمسالم والتي تحافظ على سمعة الدول الاجنبية . وحكمت المحكمة بان يسجن ميخالوف لمدة خمسة اشهر عن كل تهمة – ودمجت الحكمين معا بان قضت عليه بالسجن مدة تسعة اشهر ، تخصم منها الايام السبعة والثلاثون التي كان قد سبق ان صرفها في السجن .

كان ميخالوف قد كتب : « لحسن الحظ ان يوغسلافيا ليست الاتحاد السوفييتي ». ان المرء ليحتار في هذا . فمقال ميخالوف قد تمكن مقارنته بمقال فكتور نكراسوف عن رحلته الى ايطاليا و امريكا ، الذي نشره في « نوفي مير » وكان فيه اكثر حذرا بقليل . صحيح ان خروتشيف وايليتشيف نددا به ، لكنه لم يلاحق قط . فعبادة الشخصية قد ماتت ، بالطبع ، في روسيا بموت ستالين ؛ لكنها قد تكون كسبت في يوغسلافيا مهلة جديدة .